

الأدب في سيرة أعمام

بيرون

ذلك المهرى التمرد الذي غنى أرواح
أناشيد الحرية، ولاقى الموت في سبيل الحرية

للأستاذ محمود الحفيف



أرسل جورج بيرون إلى مدرسة صغيرة في أبردين وهو دون الخامسة ، ولكن أمه لم تعلم إلى تعليمه فيها فمهدت إلى أستاذه بتعليمه في المنزل إلى جانب المدرسة وقد حجب إليه أحدهما التاريخ وعلى الأخص تاريخ الرومان، فراح يقرأ منه في غير ملل، وعلمه الآخر اللاتينية ، بينما أخذ يوحى إليه مبادئ الكلفنية ، والطفل يستمع إليه في ذلك منهشاً متعباً يتساءل في صمت كيف يقدر الشقاء على قوم قبل مولدهم، وما جبرتهم حتى يشقون وأي فرق بينهم وبين الذين قدرت عليهم السمادة ؟ ويستمع الصبي إلى مثل هذا في حديثه مع خادمتها ماري ، حيناً يسألها وهي تتلو الإنجيل قائلاً : وما ذنب قاييل قبل أن يقتل أخاه ؟ وبضيق حين نجيبه أنه قدر عليه الشقاء ، فيقول في غضب: وكيف يسأل عن جرمته إذا ؟ على أنه يطرب للغة الإنجيل وإن لم يفهم أكثرها ويهتز قلبه لما يتخيله عقله الصغير من صورة

والصبي قوى الخيال بصوره خياله كل شيء ويلزمه ما يتخيل أبناً ذهب ، وكانت صورة الشيطان الذي طالما حدثته عنه ماري تتملك له وتصحبه في الغداة والعشي ، فإذا ترك في مخدعه وحده نفت النوم عن عينيه صورة الشيطان حتى لتمتلي ' النرفة حوله بالأشباح ، وإذا أطل من نافذته وجد المقبرة القريبة منه ملأى بالشياطين من كل هيئة ومن كل طول وهي تتماثل وتتراقص ويستمع الصبي أيضاً إلى أحاديث أمه وخادمتها عن أجداده لأنه وأجداده لأنهم وكيف قرنت بالشر أيامهم فيمرو ذلك إلى أنه قد قدر عليهم الشقاء من قبل فكانوا من حزب الشيطان كما كان قاييل من حزب الشيطان ، ويخاف الصبي أشد الخوف أن يكون نصيبه من الحياة مثل نصيب هؤلاء وهو يرى من أثر الشيطان في خلق أمه ما يرى ثم يرى منه في نفسه ذلك المرج الذي ازداد ألمه منه حينما بلغ السابعة

ويعرف الصبي في المدرسة بمحبة ذكائه بقدر ما يعرف بإهماله وانصرافه عن دروسه ، ويسمع منه معلوم عبارات يبدو بها أكبر من سنه ويدهشهم منه قراءته الخارجية التي لن يبلغ نصيبه منها عشرة من أقرانه مجتمعين ، وكان شغفه بالشرق عظيماً فقرأ قصص ألف ليلة وليلة وألم بقدر كبير من تاريخ أم الشرق ، وفي مقدمتهم الترك ، وكانت أمه على قصر ذات يدها لا تضن عليه بما يطلب من الكتب ، فكان يمد ذلك منها أكبر حسناتها إن كان ثمة لها غير هذه من الحسنات

وعرف شاعر القند بمحبة عاطفته وتمرده على القوانين والأوضاع الرتيبة ، وعرف كذلك باستمداده للنضال والمجور إذا استفزه إلى ذلك أحد. عاد إلى منزله ذات يوم يلهث وفي وجهه آثار معركة، فأجاب على تساؤل خادمتها عن هذا بأنه تربص بفلان كان أهانه فتوعده حتى وقع عليه في الطريق فأذاقه من بطشه وأتم حديثه قائلاً : « وكيف لا أنفذ ما توعدته به ؟ ألسنت بيروني النسب ؟ » واستقرت في أعماق نفسه الصغيرة مناظر اسكتلندة برواسيها للشاغات التي تجل رؤوسها الثلوج وتلوح بعض قممها على الصحاب، وكانت هذه الأجرام الهائلة تهز نفسه وتستميله أكثر مما تفعل

الزهور والرياح وأشباهاها من مناظر الطبيعة الهادئة الوديمة ...
وتفتح قلب الصبي للحب وهو في الثامنة ، فقد رأى في إحدى
جولاته مع أمه ابنة أحد الفلاحين فأحبها حتى ما يطيق أن يفارقها؛
ولما فارقها على رغبة كانت تجيش نفسه وهو في تلك السن بمآلى
الوجد والحزن ... على أنه ما لبث وهو في التاسعة أن هام بابنة
عم له هياماً استأثر بلبه ، فما يفكر إلا فيها وما يرى حسناً يقاس
إلى حسناتها ، إنه ليحس إذا جلس بها بما يملأ قلبه من مآلى الوداعة
واللين واللفظ حتى لينسى عنقه وحدته أتم النسيان ، ولا يزججه
إلا خجله من عرجه ، وكم يتمنى أن لم تكن له تلك العاهة التي
يعظم خجله منها أمام ابنة عمه ماري أكثر مما يعظم تلقاء غيرها
من الناس ...

وكانت أمه توفى في قرارة نفسها أن ابنها سيكون رجلاً
عظيماً في غده. ولعل مرد ذلك إلى ما تنمناه الأمهات عادة لأبنائهن،
ولعل مرده إلى ما أخذته من عرافة ريفية نبأتها بما سيكون له
من خطر في غده. وها هي ذى الأيام توشك أن تحقق جانباً
من نبوءة المرافة ، فلقد كان للورد الخامس في الأسرة وهو
شقيق جده حفيد هو الذي يرث اللقب من بعده فبات هذا الحفيد
عام ١٧٩٤ لم يبق بين الطفل واللقب إلا أن يموت ذلك اللورد
الشيخ ، وما لبث أن مات ذلك للشيخ بعد ذلك بنحو أربعة
أعوام ، فانتقل لقب الأسرة الوراثي إلى الطفل وهو في العاشرة .
وفرحت أمه أشد الفرح ولكن الطفل يتجه إلى المرأة ويسأل أمه
عما إذا كانت ترى فيه فرقاً بين يومه أمه لأنه لا يرى شيئاً
من ذلك .

ولكن هذا اللقب سوف يكون عظيم الأثر في حياة شاعر
النقد وموقف المجتمع منه ، إذ سيكون من أهم ما توفى له من
أسباب الإعجاب به وذهاب صيته في الأوساط جميعاً

وتأهبت أمه لتذهب به من أبردن إلى حيث ينسلم ما ورثه
مع لقيه الجديد من ثروة ، وكان للصبي يومئذ في سنته الحادية
عشرة ، ولقد عز عليه أن يقادر أبردن فيبتمد عن ابنة عمه ماري
التي أحبها ذلك الحب الشديد وعن مناظر اسكتلندة ، ويحرم
مما باتت توجهه إليه شواهداها ووديانها، تلك الشواهد التي ألف تسليق

جوانبها على الرغم من عاهته والتي زلت قدماء على سفوحها
ذات يوم حتى أشرف على الموت لولا أن تداركه بعض من كان
معه ، فلم يزد ذلك إلا تعلقاً بها وإقداماً على معاودة تسلقها
ورحلت الأم وولدها وخادمتهما، وأحس الصبي أنه ينتزع
نفسه من ملاعب طفولته انتزاعاً ، ولقد استقرت في نفسه
مناظرها وطيفها ، وما أعظم ما سيكون لها تيك الطيوف في غد
من الأثر في شعره وخياله

وانتهى بهم السير في نيوسند وحطوا رحالهم في مهد الأسرة
المتيق، في ذلك القصر الذي أفتت جدره المتيدة السنين الطوال.
ولشد ما أحبه الصبي وآسى في هيكله وأبناؤه وحجراته أحلاماً
جديدة أضافها إلى سالف أحلامه ... وأقبل على الخدم يسألهم
عما تقع عليه عيناه وعلى الأخص عن تلك الصور المعلقة على
الجدران ... فهذه صورة اللورد التمس الذي ورث عنه الصبي
ما ورث ، وتلك صورة أحد أجداده الذي أبلى أحسن اللبلاء
في الحروب الصليبية ومات في الأرض المقدسة ، وهذه ...
وهذه... والصبي معجب بذلك كله إعجاباً شديداً وإنه ليزهى أشد
الزهو بأنه اللورد الجديد الذي آل إليه ذلك القصر وما فيه جميعاً .

وغرس الصبي بيده شجرة هناك لتكون ذكرى له
على أن ذلك القصر لم يعد يصلح للسكنى بسبب ما أصابه
من التخريب أيام ذلك اللورد التمس ، ولم يك لدى أم الصبي
ما يتطلبه إصلاحه من المال ، ولذلك لم تلبث أن تركته وابنها
إلى مدينة نوتنجهام ... واعتلج في نفس اللورد الصغير الألم
لفراق قصره السحري ، الذي أمل أن يتسلى به عن ماري دف
وقد شغ قلبه الوجد لبعده عنها . ولقد كان عجياً أن يحبها مثل
هذا الحب في التاسعة وأن بأسى على فراقها هذا الأسى وهو بعد
لم يتجاوز الحادية عشرة ، ويذهب بعض علماء النفس إلى أن مثل
هذه العاطفة للباكرة بشرير ينبوغ صاحبها غداً في مجال الفن ؛
ويروى عن دانتي أحد شعراء الدنيا الأفاضل أن قلبه الفض نبض
بحب ياتريس وهو لا يزال في التاسعة من عمره .

الخفيف

(ينبر)